

تأملات في قوله تعالى
(وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

سلسلة رسائل الفضيلة ١٦

تأملات في قوله تعالى
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

حقوق الطب مع محفوظة

الطبعة الأولى لدار الفضيلة
(1435 هـ - 2014 م)

رقم الإيداع: 333 - 2014

ردمك: 2 - 70 - 866 - 9947 - 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو - المحمدية - الجزائر

هاتف وفاكس: 021519463

النقل: 0559069992

التوزيع: 08 62 53 08 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربُّنا ويرضى،
اللَّهُمَّ لك الحمدُ على كُلِّ نعمةٍ أنعمتَ بها علينا في قديمٍ أو حديثٍ، أو
سرٍّ أو علانيةٍ، أو خاصّةٍ أو عامّةٍ؛ لك الحمدُ بالإسلام، ولك الحمدُ
بالإيمان، ولك الحمدُ بالقرآن، ولك الحمدُ بالمعافاة، اللَّهُمَّ لك الحمدُ
بالأهل والولد والمال، اللَّهُمَّ لك الحمدُ حتّى ترضى، ولك الحمدُ إذا
رضيتَ، وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ
مُحمّداً عبدهُ ورسوله ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعدُ:

فإنَّ موضوعَ هذه الرّسالة يُعدُّ من أعظم الموضوعات،
وأجلّها على الإطلاق، وهو تأمُّلٌ وتدبُّرٌ في قول ربِّنا - جلَّ شأنه -:
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهو جزءٌ من آيةٍ في
سُورة التّوبة؛ ومن المُهمِّ بين يدي هذا الموضوع أن نقفَ قليلاً
متأمّلين في السّياق الَّذي وردت فيه هذه الآية إتماماً للمعنى،

وتكميلاً للفائدة، وهو سياق اشتمل على بيان مكانة المؤمنين العلية، ومنزلتهم الرفيعة، وما هم عليه من جد واجتهاد وعمل في نيل مرضاة الله ﷻ، ثم بيان ما أعدّه - تبارك وتعالى - لهم من كرامات، وما هيّاه لهم من أجر كبير وثواب عظيم؛ قال الله ﷻ:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

فذكر - جلّ وعلا - أولاً أعمالهم من طاعة لله ﷻ ورسوله ﷺ، وقيام بفرائض الإسلام، وواجبات الدين، وعمل على تبيان دين الله ﷻ نصحاً لعباده، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، ثم أتبع ذلك - جلّ شأنه - بذكر ما أعدّ لهم من ثوابٍ بترتيبٍ بديع؛ بداه بذكر ما أعدّ لهم من جنّات تجري من تحتها الأنهار، ثم ذكر

المساكن العظيمة، والغُرَفَات العليَّة التي أعدَّها لهم نُزُلًا ومسكنًا في
 تلکم الجنَّات، ثمَّ ذكَرَ الكرامة الكبرى، والمِنَّة العظمى، ألا وهي
 رضوانه - تبارك وتعالى - عنهم قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
 أَكْبَرُ﴾، ثمَّ ختمَ السَّيَاق بقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢).

ولم يذكر المفضَّل عليه بعد قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ للعلم به، وبيانًا
 لعظم رضوان الله ﷻ، وجلالة شأنه، وأنَّه أكبرُ من كلِّ نعيمٍ،
 وأجلُّ من كلِّ عَطِيَّةٍ؛ وذلك أنَّ رضوان الله ﷻ صفة من صفاته
 ﷻ، وجنَّته وما فيها من كراماتٍ وعطايا وهباتٍ مخلوقٍ من
 مخلوقات الله ﷻ، فرضوان الله أكبرُ من الجنَّة، وأكبرُ من كلِّ نعيمٍ
 فيها؛ إذ هو أعظمُ كرامةٍ، وأجلُّ عَطِيَّةٍ.

ويوضِّح هذا المعنى في الآية - وإن كان واضحًا ظاهرًا - ما خرَّجه
 البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث أبي سعيد الخدري
رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ
 الْجَنَّةِ، فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فيقول: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فيقولون:
 وما لنا لا نَرْضَى، وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ! فيقول: أَنَا

أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ! فيقول: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).

وروى الحاكم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قال: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ فيقولون: رَبَّنَا وَمَا فَوْقَ مَا أُعْطِينَا؟ قال: يَقُولُ: رِضْوَانِي أَكْبَرُ»^(٢) أي أكبر من الجنة وما فيها.

وقال الحسن البصري: «يُصَلُّ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ مَا هُوَ أَلَذُّ عِنْدَهُمْ وَأَقَرُّ لَأَعْيُنِهِمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَصَابُوهُ مِنَ لَذَّةِ الْجَنَّةِ»^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «تَأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِي الْفَاتِحَةِ فِي

(١) صحيح البخاري (رقم ٦٥٤٩) واللفظ له، ومسلم (رقم ٢٨٢٩).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٥٦/١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، ويشهد له ما قبله.

(٣) انظر: «تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمنين (٢/٢١٩).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

فطلبُ العون من الله ﷻ على نيل مرصّاته - جلّ شأنه - هو
أجلُّ مطلبٍ، وأكبرُ مقصدٍ، وأنبَلُ هدفٍ، وأسمى غايةٍ، وأعظمُ
أمرٍ شَمَّرَ في نيله المشمّرون، وسَعَوْا في تحصيله؛ «ولذلك كان
الرضا بابَ الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة
المحبين ونعيم العابدين وقرة عيون المشتاقين»^(٢).

فينبغي على كلّ مسلم أن يُودِع هذه الآية الكريمة في
قلبه، وأن يحرص على حضورها في ذهنه في كلّ مقامٍ، وفي
كلّ موقِفٍ، وفي كلّ حالٍ؛ لأنَّ هذه الآية إذا قامت في
القلب، وكان ما دلّت عليه هو هدف الإنسان، وغايته
ومطلبه؛ فإنَّ أحواله كلّها تصلح، وأموره كلّها تزين.

وقوله ﷻ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ هذا الموضع فيه
لطائفٌ عظيمةٌ تدلُّ على عِظَمِ هذا الرِّضْوَانِ، ورفعة شأنه، أشار إليها

(١) نقله عنه الإمام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٤).

علماء التفسير في كتبهم - رحمهم الله ونفع بجهودهم - من ذلكم:
* أن عطف الرضوان على ما قبله جاء عطف جملة، ولم
يأت عطف مفرد، وهذا فيه إشارة إلى أن هذا فضل مستقل
مختلف تمامًا عما ذكر قبله، وهو نعيم الجنة.

* ثم إنه قال: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ بالتَّنْكِير؛ وهذا يفيد
التَّعْظِيمَ، وفخامة الرضوان، وعلو شأنه.

* وأيضًا جاء مُنَوَّنًا، والتَّنوين يفيد التَّعْظِيمَ.
* وجاء مرفوعًا كرفع شأن الرضوان، وعلو شأنه.

* ثم إنه - جلَّ شأنه - قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ولم
يقُل: «منه»؛ وفي إظهار اسم الجلالة في هذا المقام إيماء إلى
عظمة هذا الرضوان المضاف إلى الله ﷻ.

* ثم إنه - جلَّ شأنه - قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾
ولم يَقُل: «رضا»؛ والفرق بين الرضوان والرضا: أن زيادة المبنى
- كما يقول أهل العلم - فيه زيادة المعنى، فزيادة الألف والنون
تدلُّ على قوة هذا الرضوان وكثرته وعظمه وجلالته.

* ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ولم يقل: «ورضوانُ الله أكبر»؛ وهذا - أيضًا - فيه لطيفةٌ عظيمةٌ، ألا وهي: أنَّ هذا الرِّضوان وإن قلَّ وإن كان يسيرًا في حقِّ عبدٍ ما، فهو أعظمُ من الجنة وما فيها، وليس في رضوان الله ﷻ ما هو يسيرٌ كما قيل:

قليلٌ منك يكفيني ولكن قليلُك لا يقالُ له قليلُ
كلُّ ذلك يدلُّنا على عِظَمِ هذا المقصد، وجلالة هذا
المطلب، وأنَّه أعظمُ مبتغى، وأجلُّ غاية، وأنبَلُ هدف، وأنَّ
الواجبَ على المسلم العاقل الحصيف أن ينهض بنفسه نهوضًا
عظيمًا قبل أن يفوته هذا الخير العظيم، والفضل العميم.

والواجبُ على مَنْ اشتاقت نفسه لهذا الرِّضوان، وتاقت لهذه
المنزلة العلية، ورغبت في هذا الأجر العظيم أن يُعَدَّ لهذا الأمر
عُدَّتَه، وأن لا يشغله عنه أيُّ شاغلٍ، وربُّنا - جلَّ شأنه - أخبرنا في
مواضع من القرآن الكريم بأنَّ ثَمَّةَ شواغلٍ كثيرةٍ جدًّا تُشغِلُ العبدَ
عن نيل هذا الرِّضوان، وتعوِّقه عن تحصيله؛ فلا يزال يتعثرُ إلى أن
يفوَّت على نفسه حظه ونصيبه من هذا الرِّضوان العظيم.

ولتأمل في هذا المعنى قول الله ﷻ: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ
عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالْقُلُوبِ الْغَافِلِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ
﴿١٧﴾﴾ [سُورَةُ الرَّحْمٰنِ]؛ فهؤلاء الذين تبوؤوا منازل الرضوان، وفازوا
بهذا الأمر العظيم، والمطلب الجليل، سبقه رضا منهم عن الله ﷻ،
وجِدُّ واجتهاد في طاعة الله ﷻ، كما يوضِّحه هذا السياق وغيره ممَّا
جاء في كتاب الله، ولم تشغلهم تلك الشواغل عن نيل الرضوان.

ومثل هذه الآية في التحذير من الشواغل التي تشغل الإنسان
وتعوقه عن نيل هذا الرضوان قول الله ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلَادِ كَمَثَلِ
غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُمْ مَّصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْفُورِ ﴿٢٠﴾ [سُورَةُ الْحَٰلِقِ]؛ فيأتي ذكر الرِّضوان في مثل هذه المقامات تنبيهاً للعباد؛ ليتنبه مَنْ أراد لنفسه هذا المطلب العظيم، والمقصد الجليل، ألا تشغله هذه الشَّواغل، وأن لا تُلهيه هذه الملهيات بأن تكون صارفةً له عن نيل هذا الرِّضوان العظيم، وتحصيله والفوز به.

وتحقيق هذا الرِّضوان والظَّفَرُ به يتطلَّب من العبد أموراً عديدة جاءت مبيَّنة في كتاب الله ﷻ، وسنَّه نبيِّه ﷺ إلا أنَّها في الجملة ترجع إلى أمرين عظيمين، وأصلين مَتيَّنين ينبغي على كلِّ ناصحٍ لنفسه أن يُعنى بهما أشدَّ العناية، وأن يهتمَّ بهما عظيمَ الاهتمام:

الأمر الأول: ابتغاء الرِّضوان؛ وفي هذا يقول الله ﷻ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

بِالْعِبَادِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَعَةِ]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البَقَعَةُ: ٢٦٥]، ويقول جلَّ وعلا:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مَّن نَّجُوهُمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ

إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ

أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ [سُورَةُ النَّبَاِ]، ويقول ﷺ: ﴿مَا كُتِبَتْهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٢٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والأمر الثاني: اتباع الرضوان؛ يقول الله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ]، ويقول ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [١٧٣] فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ].

فحصل لنا مما سبق في نيل رضوان الله وتحصيله: أن يجمع العبد لنفسه بين هذين الأمرين العظيمين والأصلين المتينين.

❖ الأول: ابتغاء الرضوان، ومعنى ابتغاء الرضوان الإخلاص في الأعمال وحسن التوجه للرب سبحانه وتعالى ذي الجلال والكمال؛ بحيث يكون العامل مُخْلِصًا في عمله يرجو به ثواب الله ﷻ والدار الآخرة؛ لا يتبغي شيئًا في أي عمل يُقدِّمه إلا نيل الرضوان؛ ولن يكون في صالح عمل العبد إلا ما قصد به العبد

وجهَ الله ﷻ، أمَّا الأعمالُ الَّتِي قامت على الرِّياء - مثلاً - والسُّمعةِ وحبِّ الشُّهرةِ وحبِّ الظُّهورِ وحبِّ علُو الصَّيتِ وحبِّ الذِّكرِ إلى غير ذلك من الأغراض، فكلُّها لا تقربُ العبدَ من رضوان الله.

وإنَّما الَّذِي يقربُ العبدَ من الرِّضوان ما ابتغى به من عمله رضوانه ﷻ، وما سوى ذلك، فإنَّ الله لا يقبلُهُ منه، وإنَّ عَظَمَ العملُ وكَبُرَ؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرِكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ»^(١).

❖ الثَّانِي: اتِّبَاعُ الرِّضْوَانِ؛ بَأَن يَحْرِصَ الْعَامِلُ عَلَى الْأَعْمَالِ الَّتِي جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ الْكَرِيم - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -؛ فَإِنَّ رِضْوَانَ اللَّهِ ﷻ لَا يُنَالُ إِلَّا بِلِزُومِ دِينِهِ الَّذِي رَضِيَهُ لِعِبَادِهِ، وَبَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيَوْمٍ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [التَّوْبَةُ : ٣]؛ فَهَذَا الدِّينُ الَّذِي رَضِيَهُ اللَّهُ ﷻ لِعِبَادِهِ هُوَ الَّذِي يُتَّبَعُ؛ لِيُنَالَ بِاتِّبَاعِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (رَقْم ٢٩٨٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ﷺ، وعليه فالآيات التي مرَّ ذكرُها في أكثرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِ
 اللَّهِ ﷻ ﴿وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ يُراد بها هذا المعنى؛ أن يَلْزَمَ المسلمُ
 الأعمالَ التي رَضِيَها ﷺ وبعثَ بها رسوله ﷺ، ولهذا نقل شيخ
 الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض كُتُبِهِ عن بعض أهل العلم أَنَّهُ
 قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّ الرِّضَا فَلْيَلْزَمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ رِضَاهُ فِيهِ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الكلام في غاية
 الْحُسْنِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ لَزِمَ مَا يُرِضِي اللَّهَ مِنْ امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، واجْتِنَابِ
 نَوَاهِيهِ لَا سِيَّامًا إِذَا قَامَ بِوَاجِبِهَا وَمُسْتَحَبِّهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَرْضَى عَنْهُ»^(١).

فَمَنْ أَرَادَ لِنَفْسِهِ مَحَلَّ الرِّضْوَانِ يَوْمَ يَلْقَى اللَّهُ ﷻ فَلْيَجِدْ ذَلِكَ إِلَّا
 بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَلِزُومِ نَهْجِهِ الْقَوِيمِ.
 فبهذين الأصلين؛ ابتغاءُ الرِّضْوَانِ واتباعُ الرِّضْوَانِ، يَفُوزُ الْعَبْدُ
 بِرِضَا اللَّهِ ﷻ، وعظيم موعوده، وجميع الآيات التي وردت في هذا
 المعنى كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْمَتَيْنَيْنِ، وفيهما يقول الفضيلُ
 ابن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٦٨١، ٦٨٦)، «الاستقامة» (٢ / ٧٤).

عَمَلًا ﴿ هُذ: ٧ ﴾ قال: «أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ»، قيل: يا أبا علي! وما أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ؟ قال: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ؛ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ مَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ مَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»^(١).

وقد جُمع بين هذين الأصلين في آياتٍ؛ منها الآيةُ الَّتِي خُتِمَتْ بِهَا سُورَةُ الْكَهْفِ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ] وَهَذَا اتِّبَاعُ الرِّضْوَانِ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾ وَهَذَا ابْتِغَاءُ الرِّضْوَانِ بِإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -.

وَعَلَى الْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ أَنْ يَكُونَ مُسَارِعًا لِلْخَيْرَاتِ لَا أَنْ يَكُونَ مُتَقَاعَسًا مُتَوَانِيًا مَفْرَطًا مُضِيعًا مَسُوفًا، وَلِيَكُنْ رَائِدُهُ فِي هَذَا الْبَابِ وَقُدُوتُهُ فِيهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ - عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ -، وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ الْعَظِيمَةِ فِي

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (ص ٥١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨ / ٩٥).

ذلك قول الله ﷻ عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [سُورَةُ طه: ٨٤]، أخذَ أهلُ العلم من هذه الآية، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الأصل أن يُسارع العبدُ في نيل مرضاة الله لا أن يسوّف، أو أن يؤجل، أو أن يؤخر، فكم من أناسٍ أخرّوا أعمالاً يُنال بها رضوان الله ﷻ فذاهمهم الموت، وباغتتهم الأجل قبل أن يُحققوا تلك الأعمال، وقبل أن يفوزوا بتلك الخصال.

فالواجبُ على العبد أن يكون ساعياً في الرضوان، مُسارعاً إلى نيله، جاداً ومجتهداً في تحصيله، ويكون دائماً وأبداً التماس الرضوان.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن ثوبان رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ وَلَا يَزَالُ بِذَلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِجَبْرِيلَ: إِنَّ فُلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي، أَلَا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جَبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فُلَانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ - أي رحمة

الله ﷻ - له إلى الأرض»^(١).

وعندما يكون الحديث عن رضوان الله، وسُبل نيله ينبغي أن يستحضر في الذهن قُدوات العباد ممَّن فعلاً شمَّروا في حياتهم عن ساعد الجدِّ، وعملوا على تحقيق الرِّضوان، ونيله، ولم تشغلهم توافه الأمور، وحقيرُ الأشياء عن نيل رضوان ربِّهم ﷻ؛ ولهذا إذا كان الحديث عن رضوان الله ﷻ ونيله؛ فإنَّ الذَّهن يتقلُّ مباشرةً بعد حياة الأنبياء المديدة، وتاريخهم العظيم في نيل رضوان الله ﷻ إلى حياة الصَّحابة رضي الله عنهم فهي حياة ذكر الله ﷻ شأنها في كتابه مُبيناً في مواضع عديدة رضاه عنهم ورضاهم عنه، وهذه - والله - مكرمةٌ عظيمةٌ، وشرفٌ جليلٌ؛ بل إنَّ ذكرَ هذا الرِّضوان جاء في التَّوراة قبل خَلْق الصَّحابة رضي الله عنهم، وقبل أن يدرجوا على الأرض، وفي هذا يقول ﷻ:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٧/٣٧) رقم (٢٢٤٠١)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصَّحيح غير ميمون بن عجلان، وهو ثقة» «مجمع الزَّوائد» (١٠/٢٠٢)، وميمون بن عجلان هذا ذكره ابن حَبَّان في «الثَّقَات» (٧/٤٧٣)، فلعَلَّ الهيثمي اعتمد على توثيقه له، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/٤٦٢): «أخرجه أحمد والطَّبْراني في «الأوسط»، ويشهد له حديث أبي هريرة الآتي في الرِّقاق فيه: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» الحديث».

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سُورَةُ الْفَتْحَةِ: ١٩]؛ فهم قبل أن يُخْلَقُوا، وقبل أن يُوجَدُوا ذَكَرَهُمُ اللَّهُ ﷻ في التَّوْرَةِ هذا الذِّكْرُ العَظِيمُ، كما أَنَّهُ ذَكَرَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ بقوله ﴿وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾؛ فهو لاء الكرام ﷺ حَقَّقُوا هذا الأَمْرَ، وبلغوا فيه الرُّتَبَةَ العَلِيَّةَ، فكانوا في تحقيقه في الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تلي الأنبياء في تاريخ الأُمَمِ كُلِّهَا، فلا كان ولا يكون مِثْلُهُمْ بعد الأنبياء، وقد قال الله ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١١٠].

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»^(١)، وهذه الخيرية

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥٢، ٣٦٥١)، ومسلم (رقم ٢٥٣٣) من

حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

هي خيرية في جميع أمم الأنبياء؛ ولهذا فيما يتعلق بأفضل الصحابة قال ﷺ: «أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُھُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، مَا خَلَا النَّبِيُّنَ وَالْمُرْسَلِينَ»^(١).

فَشَرَفُ هَؤُلَاءِ وَفَضْلُهُمْ وَنُبْلُهُمْ وَعُلُوُّ قَدْرِهِمْ وَرَفْعَةُ مَكَانَتِهِمْ لَيْسَتْ رُتَبَةً أَوْ فَضْلًا حَازُوهُ عَلَى هَذِهِ الْأَمَّةِ فَقَطْ، بَلْ هِيَ رُتَبَةٌ حَازَوْهَا عَلَى مَسْتَوًى جَمِيعِ الْأُمَمِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ؛ لِأَنَّ تَارِيخَهُمْ كُلَّهُ تَارِيخٌ مُجِيدٌ فِي تَحْقِيقِ الرِّضَا وَنِيْلِهِ، وَجَدُّ فِي هَذَا الْمَطْلَبِ الْعَظِيمِ وَتَحْصِيلِهِ؛ وَلِهَذَا تَمَرُّ مَوَاقِفَ عَظَامٍ هِيَ مُحْكٌ فِي الْفَوْزِ بِالرِّضَا وَتَحْصِيلِهِ، فَيَتَسَابِقُونَ لَذَلِكَ، وَيَتَنَافَسُونَ عَلَيْهِ، وَيَبَادِرُونَ، وَتَنْزِلُ الْآيَاتُ فَوْرًا فِي كُلِّ مَوْقِفٍ بِإِعْلَانِ رِضَا الرَّبِّ ﷻ عَنْهُمْ، فَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - لَمَّا انْتَهَتْ، وَمَضَى الْمُسْلِمُونَ، وَعَادَ الْمُشْرِكُونَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي مُصَابِهِمْ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ مُشْخِنٌ بِجِرَاحِهِ، يَعلنُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْجَمِيعِ فَوْرًا مَلَا حَقَّةَ الْمُشْرِكِينَ.

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (رَقْم ٣٦٦٦، ٣٦٦٥)، وَابْنُ مَاجَه (رَقْم ٩٥)، وَأَحْمَدُ

(رَقْم ٦٠٢)، وَغَيْرُهُمْ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (٨٢٤).

ولك - أخي المسلم - أن تتصوّر تلك الحال بتلك الجراح،
وتلك الدماء، وذلك التعب، وذلك النَّصَب، فما تخلف منهم واحد؛
تسارعوا وبادروا، وقالوا: سمعًا وطاعةً، وقصر النَّبِيُّ ﷺ ذلك على
مَن شهد أحدًا، وانطلقوا معه إلى حمراء الأسد^(١) إلى جهة جنوب
المدينة، وفيهم نزل قوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ
جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ
﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [سُورَةُ التَّغْوِيَةِ]، هذا العمل أتباع لرضوان
الله ﷻ بشهادة ربِّ العالمين لهم ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾؛ أي أنه منَّ عليهم بهذا الفضل، وأكرمهم ﷻ.

قال أهل العلم: ففازوا بأجر غزوة كاملة مع أنهم لم يلتقوا عدوهم،
بل ألقى الله ﷻ في قلوب الذين كفروا الرعب، ففرُّوا إلى مكة مُنْهَرِمِينَ.
وفي وقعة صلح الحديبية دعا النَّبِيُّ ﷺ أصحابه وبايعهم

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة؛ عشرين كيلو مترًا تقريبًا، إليه كان
المنتهى في طلب المشركين يوم أُحُد، انظر «معجم البلدان» (٢/ ٣٠١).

تحت الشجرة، وكانوا يزيدون على ألف وأربعمئة، بايعهم على القتال حتى الموت، فبايعوه جميعاً ما تردّد منهم أحد، وما أن انتهى هؤلاء من تلك البيعة العظيمة إلا ونزل قول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿١٨﴾ [سُورَةُ الْفَتْحِ] أي فتح خير والمغانم الكثيرة التي أكرمهم الله ﷻ بها وأظفرهم بها. وهكذا تتوالى مواقف الصحابة رضي الله عنهم في المسارعة لنيل رضوان الله.

وخيرهم في هذا الباب صديق الأمة رضي الله عنه، ولما ذكر النبي ﷺ أن بلالاً رضي الله عنه يعذب، انطلق أبو بكر الصديق رضي الله عنه واشتراه وأعتقه، وأعتق ستة آخرين كلهم يعذبون في الله وفي ذات الله.

وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ﴿٢١﴾﴾ ﴿١﴾ [سُورَةُ اللَّيْلِ] أي يرضيه الله ﷻ؛ لأنه سارع

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري (٤٧٩/٢٤).

وبادر لنيل مرضاة الله ﷻ، فكانت مرضاة الله غاية مقصوده،
ونهاية مطلوبه رضي الله عنه وأرضاه.

الله أكبر!! وتتويجاً لهذا المقام الشَّريف والمنزلة العليَّة، الَّتِي جعلها
الله لهم - وهي رضا الله عنهم - لتأمل كيف أنَّ الله ﷻ فَتَحَ لِلأُمَّةِ إِلَى
زماننا هذا إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ وَمَنْ عَلَيْها بَأْنَ لا يُذَكَّرُ صحابيُّ إِلَّا
وَيُقَرَّنُ بذكره الدُّعاءُ له بِالرِّضَا «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، حَتَّى إِنَّ الإنسانَ إِنْ
سها وذكر صحابيًّا دون التَّرضي عَنْهُ رُبَّمَا نَبَّه، قيل: لَمْ تَرْضَ عَنْهُ،
رضي الله عن الصَّحابة أجمعين ورزقنا بحبِّهم نيل رضوانه.

الله أكبر!! أَصْبَحَ الدُّعاءُ لَهُم بِالرِّضَا قَرِيناً لذكر أسمائهم
في كُلِّ الأَزمان، بل في كُلِّ يومٍ من أَيَّام المسلمين من تاريخ
الصَّحابة إلى يومنا هذا إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ وَمَنْ عَلَيْها،
فَكَمْ يُدْعَى للصَّحابة بِالرِّضوان في كُلِّ يوم؟ أهو ألف مرَّة!!
أو آلاف!! أو ملايين!! لا يحصي ذلك إِلَّا اللهُ ﷻ.

وهذا الفتحُ الَّذِي فَتَحَهُ اللهُ ﷻ على الأُمَّة دِعاءً للصَّحابة
ﷺ بِالرِّضوان إِنَّمَا هِيَأَهُ ﷻ ووفق المسلمين للعناية به، والمحافظة

عليه؛ إعلاءً لمقام الصَّحابة رضي الله عنهم في نيل رضوان الله تعالى.

والله تعالى إذا فتح لعباده باب الدُّعاء فتحت لهم أبواب الرحمة وأعطاهم سؤالهم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غُزَّط: ٦٠]، ودعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مُسْتَجَابَةٌ، فكم هي هذه الدَّعوات الكثيرة الَّتِي يُلْهَجُّ بها المؤمنون عبر تاريخهم وأَيَّامِهِم للصَّحب الكرام، وكم هو هذا الرِّضوان العظيم الَّذِي فاز به الصَّحبُ الكرام رضي الله عنهم.

وعندما يتحدَّث المسلم عن الصَّحابة ومكائِنَتِهِم ورضوان الله تعالى عنهم رضي الله عنهم وأرضاهم، لا ينبغي أن يكون حديثه في هذا الباب حديثاً مُجَرَّدًا عن النُّهوض بالنَّفْس للاقتداء والالتساءل بهم رضي الله عنهم، فإنَّ الإنسان بهذا لا يستفيد من مُطالعة تاريخهم ولا من قراءة سيرهم، وإنَّما تتحقَّق الفائدة إذا جُعِل الصَّحابة رضي الله عنهم قُدوةً يقرأ تاريخهم المجيد، وحياتهم الكريمة؛ لِيَأْتِيَ بهم فعلاً ليفوز بالرِّضوان، وهذا المعنى مُقرَّر في قول ربِّنا تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

بِإِحْسَنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرِضْوَانَهُ ﴿ [التَّوْبَةِ : ١٠٠] ، فَأَشْرَكَ ﷺ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا الصَّحَابَةَ بِإِحْسَانٍ بِالرِّضَا عَنْهُمْ؛ فَحِطُّ الْعَبْدِ مِنْ رِضَا
اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَسَبِ حِطِّهِ مِنْ هَذَا الْاِقْتِدَاءِ بِمَنْ رَضِيَ اللَّهُ
ﷺ عَنْهُمْ وَأَخْبَرَ بِرِضَا عَنْهُمْ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ﷺ.

ثُمَّ لَا يَفُوتُ التَّنْبِيهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ مَنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ
الْغِلِّ أَوْ الْحِقْدِ أَوْ الضَّغِينَةِ أَوْ الْبُغْضِ أَوْ السَّخَائِمِ تَجَاهَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ
ﷺ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - عَمُومًا أَوْ أَفْرَادًا، أَنَّهُ أَمَارَةٌ بَيِّنَةٌ، وَعَلَامَةٌ وَاضِحَةٌ
عَلَى فَوَاتِ نَصِيْبِهِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ﷺ وَخَسْرَانِهِ فِي هَذَا الْبَابِ
الْخَسْرَانُ الْعَظِيمُ؛ إِذْ كَيْفَ يَكُونُ قَوْمٌ هَذَا شَأْنُهُمْ، وَتِلْكَ مَكَانَتُهُمْ،
وَرَبُّ الْعَالَمِينَ يُعْلِنُ رِضَاهُ عَنْهُمْ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، ثُمَّ
يَكُونُ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ سَخِيمَةٌ أَوْ غِلٌّ أَوْ حِقْدٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﷺ
وَأَرْضَاهُمْ؟! فَضْلًا عَنْ حَالِ مَنْ يُشْغِلُ نَفْسَهُ وَأَوْقَاتَهُ وَأَيَّامَهُ بَلْعَنِ
الصَّحَابَةِ ﷺ، وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُ ذَلِكَ وَرَدًّا يَوْمِيًّا يُحَافِظُ عَلَيْهِ إِمْعَانًا
فِي الْكِرَاهِيَةِ وَالْبُغْضَاءِ لِلصَّحَابَةِ ﷺ، وَلَا سِيَّمَا خِيَارِ الصَّحَابَةِ،
وَخُصُوصًا أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ ﷺ.

ألا شأنت الوجوه!! ألا ما أعظم الخسران!! وما أبعد هؤلاء
 عن الرضوان، على أن الصحابة رضي الله عنهم لا يضُرُّهم لَعْنٌ ولا
 طَعْنٌ طاعين، بل إنَّ الأمر كما روى جابر ابن عبد الله رضي الله عنه، قال:
 قيل لعائشة رضي الله عنها: إنَّ ناسًا يتناولون أصحاب رسول الله رضي الله عنه
 حتَّى إثمهم ليتناولون أبا بكر وعمر، فقالت: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا؟!
 إِنَّمَا قَطَعَ عَنْهُمْ الْعَمَلُ، فَأَحَبَّ اللَّهُ أَنْ لَا يَقْطَعَ عَنْهُمْ الْأَجْرُ»^(١).

فهؤلاء السَّبابَةُ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِسَبِّ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم لا يضرُّ
 الصَّحَابَةَ مِنْ سَبِّهِمْ شَيْءٌ؛ بل إنَّ ذلك يُعَدُّ أَجْرًا وَمَغْنَمًا لِلصَّحْبِ
 الْكَرَامِ رضي الله عنهم وأرضاهم، ومَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ
 الصَّحِيحِ: «تَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ،
 وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ
 وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ
 هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/٢٧٥)، وابن عساكر في

«تاريخ دمشق» (٤٤/٣٨٧).

فَبَيَّنَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ^(١) وَيُقَى - أَيْضًا - هَذَا بَابٌ آخَرٌ لَعَلَّوْا مَنْزِلَةَ الصَّحَابَةِ فِي نَيْلِ الرِّضْوَانِ سَوَاءً فِيمَنْ تَرْضَى عَنْهُمْ، أَوْ طَعَنَ فِيهِمْ ظُلْمًا وَبَغْيًا؛ فَإِنَّ هَذَا الطَّاعِنَ يُعْطِيهِمْ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَاءَ أَمْ أَبَى كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ نَبِيُّنَا الْكَرِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

ثُمَّ إِنَّ الرِّضْوَانَ الَّذِي يُحِلُّهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى أَهْلِ جَنَّتِهِ، فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ أَبَدًا هُوَ ثَمَرَةٌ وَأَثَرٌ لِرِضَاهُمْ عَنْهُ جَزَاءً مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ فَلَمَّا رَضُوا عَنْ اللَّهِ ﷻ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَالرِّضَا الَّذِي هُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ، وَالَّذِي يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ نَوْعَانِ دَلَّتْ عَلَيْهِمَا الْأَدَلَّةُ:

❖ النَّوعُ الْأَوَّلُ: الرِّضَا بِاللَّهِ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (رَقْمُ ٢٥٨١).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (رَقْمُ ٣٤).

وقد تضمنَ هذا الحديثُ أمورًا أربعةً: الرِّضا بربوبية الله ﷻ، والرِّضا بالوحيته، والرِّضا برسوله ﷺ والانقياد له، والرِّضا بدينه والتَّسليم له.

قال ابن القيم رحمه الله: «وَمِنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ: فَهُوَ الصَّادِقُ حَقًّا، وَهِيَ سَهْلَةٌ بِالذَّعْوَى وَاللِّسَانِ، وَهِيَ مِنْ أَصْعَبِ الْأُمُورِ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ وَالْإِمْتِحَانِ، وَلَا سِيَّامًا إِذَا جَاءَ مَا يَخَالِفُ هَوَى النَّفْسِ وَمَرَادَهَا مِنْ ذَلِكَ، تَيَّيَّنَ أَنَّ الرِّضَا كَانَ لِسَانَهُ بِهِ نَاطِقًا، فَهُوَ عَلَى لِسَانِهِ لَا عَلَى حَالِهِ.

* فالرِّضا بإلهيته: يتضمَّن الرِّضا بمحبَّته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتَّبتُّل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحبَّ كُلِّها إليه فعل الرَّاظي بمحبوبه كُلِّ الرِّضا؛ وذلك يتضمَّن عبادته والإخلاص له.

* والرِّضا بربوبيته: يتضمَّن الرِّضا بتدبيره لعبده ويتضمَّن إفراذه بالتَّوكُّل عليه والاستعانة به والثَّقة به والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكلِّ ما يفعل به.

فالأوَّل: يتضمَّن رضاه بما يؤمر به، والثَّاني: يتضمَّن رضاه بما يقدر عليه.

* وَأَمَّا الرِّضَا بِنَبِيِّهِ رَسُولًا: فَيَتَضَمَّنُ كِهَالِ الْإِنْقِيَادِ لَهُ وَالتَّسْلِيمِ الْمَطْلُوقِ إِلَيْهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ، فَلَا يَتَلَقَّى الْهُدَى إِلَّا مِنْ مَوَاقِعِ كَلِمَاتِهِ، وَلَا يُحَاكِمُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُحَكِّمُ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، وَلَا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ أَلْبَتَّةَ؛ لَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَذْوَاقِ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَمَقَامَاتِهِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، لَا يَرْضَى فِي ذَلِكَ بِحُكْمِ غَيْرِهِ وَلَا يَرْضَى إِلَّا بِحُكْمِهِ؛ فَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ كَانَ تَحْكِيمُهُ غَيْرَهُ مِنْ بَابِ غِذَاءِ الْمُضْطَرِّ إِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يُقَيِّئُهُ إِلَّا مِنَ الْمَيِّتَةِ وَالْدَّمِ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ: أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ التُّرَابِ الَّذِي إِنَّمَا يَتَيَمَّمُ بِهِ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنْ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ الطَّهَّورِ.

* وَأَمَّا الرِّضَا بِدِينِهِ: فَإِذَا قَالَ أَوْ حُكِمَ أَوْ أَمَرَ أَوْ نَهِيَ؛ رَضِيَ كُلَّ الرِّضَا وَلَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهِ حَرْجٌ مِنْ حُكْمِهِ وَسَلَمٌ لَهُ تَسْلِيمًا وَلَوْ كَانَ مُخَالَفًا لِمَرَادِ نَفْسِهِ أَوْ هَوَاهَا أَوْ قَوْلِ مُقَلِّدِهِ وَشَيْخِهِ وَطَائِفَتِهِ»^(١).

وَالرِّضَا بِاللَّهِ فَرَضٌ افْتَرَضَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ؛ فَلَا إِسْلَامَ وَلَا إِيْمَانَ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ أَنْ يَرْضَى بِهِ ﷻ رَبًّا خَالِقًا مُدَبِّرًا، وَيَرْضَى بِهِ

(١) «مدارج السَّالِكِينَ» (١٧٢ - ١٧٣).

معبودًا بحقٍّ لا معبودَ بحقٍّ سواه؛ فَإِيَّاهُ يَقْصِدُ، وَإِلَيْهِ يَلْجَأُ، وله يَصْرِفُ أنواعَ العبادةِ، ولا يجعلُ معه شريكًا ولا ندًّا، ولا يَتِمُّ هذا الرِّضا بالله إلاَّ بالرِّضا بدينه والرِّضا بنبِيِّهِ ﷺ؛ ولهذا جُمِعت في هذا الحديث، وهذا النوع من الرِّضا مُتَعَلِّقُهُ أَسْمَاءُ اللَّهِ ﷻ وصفاته.

❖ والنَّوعُ الثَّانِي: هو الرِّضا عن الله ﷻ؛ بما يفعله بالعبد ويعطيه إياها، وهذا مُتَعَلِّقُهُ ثَوَابُ اللَّهِ، وأَجْرُهُ، وعَطَاؤُهُ، وَمَنُّهُ، وَعَوْنُهُ ﷻ.

فالأوَّل - وهو الرِّضا بالله - أَصْلٌ، والثَّانِي - وهو الرِّضا عن الله - فرْعٌ عنه، الأوَّلُ فرضٌ باتِّفاق أهل العلم، والثَّانِي وإن كان من أَجْلِ الأمور وأشرف أنواع العبودية فلم يُطالب به العموم لعجزهم عنه ومشتقه عليهم وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضا به، والتَّحْقِيقُ أَنَّ الواجب في مثل هذا المقام هو الصَّبْر، والرِّضا مُسْتَحَبٌّ، وَمَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ ﷻ في هذا المقام بتحقيق الرِّضا فازَ فوزًا عَظِيمًا.

ولعلَّ من المُسْتَحْسِنِ أَنْ أَخْتِمَ هذه الرِّسالةَ بِمَقْطَعٍ جَمِيلٍ جَدًّا من مِيمَةِ العَلَّامةِ ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ﷻ لِمَا لها من تَعَلُّقٍ بِمَوْضُوعِنا،

ولما لها - أيضًا - من أثرٍ عظيمٍ، ونفعٍ، وفائدةٍ، قال رَحِمَهُ اللهُ:

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتٍ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمَخِيْمُ
وَلَكِنَّا سَبَّيْ الْعَدُوَّ فَهَلْ تُرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ فَهُوَ مُؤَلَّمُ
وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتِي لَهَا أَضْحَتِ الْأَعْدَاءُ فِينَا تَحْكَمُ
وَحَيَّ عَلَى رَوْضَاتِهَا وَخِيَامِهَا وَحَيَّ عَلَى عَيْشٍ بِهَا لَيْسَ يُسَامُ
وَحَيَّ عَلَى السُّوقِ الَّذِي فِيهِ يَلْتَقِي الْمُحِبُّونَ ذَاكَ السُّوقِ لِلْقَوْمِ يَعْلَمُ
فَمَا شِئْتَ خُذْ مِنْهُ بِلَا تَمَنٍّ لَهُ فَقَدْ أَسْلَفَ التُّجَّارُ فِيهِ وَأَسْلَمُوا
وَحَيَّ عَلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ الَّذِي بِهِ زِيَارَةُ رَبِّ الْعَرْشِ فَالْيَوْمَ مَوْسِمُ
وَحَيَّ عَلَى وَادٍ هُنَالِكَ أَفِيحٍ وَتُرْبَتُهُ مِنْ أَدْفَرِ الْمِسْكِ أَعْظَمُ
مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ هُنَاكَ وَفَضَّةٌ وَمِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ لَا تَنْقَصُ
وَمِنْ حَوْلِهَا كُتُبَانُ مِسْكِ مَقَاعِدُ لِمَنْ دُونَهُمْ هَذَا الْعَطَاءُ الْمَفْخَمُ
يَرَوْنَ بِهِ الرَّحْمَنَ جَلَّ جَلَالُهُ كُرُوبِيَّةِ بَدْرِ التَّمِّ لَا يَتَوَهَّمُ
وَالشَّمْسُ صَحْوُ لَيْسَ مِنْ دُونِ أَفْقِهَا سَحَابٌ وَلَا غَيْمٌ هُنَاكَ يَغِيْمُ

فَبَيْنَا هُمْ فِي عَيْشِهِمْ وَشُرُورِهِمْ وَأَرْزَاقَهُمْ تَجْرِي عَلَيْهِمْ وَتُقَسَّمُ
إِذَا هُمْ بِنُورٍ سَاطِعٍ قَدْ بَدَأَ لَهُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ وَنَعِمْتُمْ
يَقُولُ سَلُونِي مَا أَسْتَهَيُّكُمْ فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ عِنْدِي إِنِّي أَنَا أَرْحَمُ
فَقَالُوا جَمِيعًا نَحْنُ نَسْأَلُكَ الرِّضَا فَأَنْتَ الَّذِي تُؤْتِي الْجَمِيلَ وَتَرْحَمُ
فَيُعْطِيهِمْ هَذَا وَيُشْهَدُ جَمْعَهُمْ عَلَيْهِ تَعَالَى اللَّهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ
فَبِاللَّهِ مَا عُدُّرُ امْرِئٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِهَذَا وَلَا يَسْعَى لَهُ وَيَقْدُمُ
وَلَكِنَّمَا التَّوْفِيقُ بِاللَّهِ إِنَّهُ يَخُصُّ بِهِ مَنْ شَاءَ فَضْلاً وَيُنْعِمُ



وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى
 وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا أَجْمَعِينَ، وَيُنْعِمَ بِالتَّوْفِيقِ لِمَا
 يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ؛ مِنْ سَدِيدِ الْأَقْوَالِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَأَنْ
 يَجْعَلَنَا مِنَ الْفَائِزِينَ مِمَّنْ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ
 وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١١].
 وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى رَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
 وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ^(١).



(١) أصل هذه الرسالة محاضرة ألقيتها في الجامعة الإسلامية في
 (١٣/٥/١٤٣٢هـ)، وقد فُرِّغَتْ مِنَ الشَّرِيطِ وَأَجْرِيَتْ عَلَيْهَا بَعْضُ
 التَّعْدِيلَاتِ الْيَسِيرَةِ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ الْمَوْفَّقُ لَا شَرِيكَ لَهُ.